هيئة الأمم المتحدة

حلقة الدراسات الاجتماعية للشرق العربى : بيروت ١٩٤٩

(وفـــد مصر)

خطط الاصلاح الاجتماعى والاوضاع التاريخية والثقافية فى الشرق العربى

محاضرة للدكتور سليمان حزين

الاستاذ بجامعة فاروق الاول . وعضو وفد مصر

يسير الاصلاح الاجتماعى فى أمريكا وغرب أوروبا على أساس دراسة المجتمع ونظمه فى أوضاعها الحالية ، ومحاولة رسم الخطة للاصلاح فى ضوء هذه الدراسة ، ويحاول بعض من يتناولون الاصلاح هناك أن يتتبعوا بعض النظم الاجتماعية من حيث تاريخها وتطورها على الزمن وقابليتها للتجديد والاصلاح . ولكن هذا المنحى من الدراسات التى تتصل بالتاريخ الاجتماعى فى بلاد الغرب لايؤخذ به إلا بقدر محدود . ذلك أن النظم والاوضاع هناك معظمها مستحدث نسبياً ، لايكاد تاريخه يرجع إلى أكثر من قرون قليلة . بل إن كثيراً من تلك النظم لايرجع إلى أبعد من عصر النهضة الصناعية الحديثة فى تلك الاقطار . وبعبارة أخرى ليس للنظم الاجتماعية التى يراد تناولها بالاصلاح هناك تاريخ طويل معقد ، فضلا عن أن أغلبها نظم متجانسه لأنها نشأت فى عصر حضارى واحد .

ويسير الشرق العربى الآن نحو دراسة الأحوال الاجتماعية ومحاولة تناولها بالاصلاح ورسم الخطط العملية لذلك . والاتجاه السائد هو أن نقتفى أثر أمم الغرب وأمريكا فى هذا الميدان ، فندرس المجتمع فى أوضاعه ونظمه «الحالية» ،

ونرسم خطة الأصلاح فى ضوء هذه الدراسة . ومع ذلك فان للشرق ظروفه الخاصة التى تجعل اتباعنا هذه الطريقة واكتفاءنا بدراسة الاحوال الراهنة غير كافيين لرسم خطة حكيمة ومستنيرة للاصلاح الاجتماعى .

ولبيان ذلك أود أن استعرض بعض ما انتهت عليه دراسات مبدئية قمت بها فى جامعة فاروق الأول خلال السنوات الأخيرة . وانصب أغلبها على البحث فى مقومات الحضارة وحياة المجتمع ونشأة نظمه الاساسية فى مصر وبعض أمم الشرق العربى . وكان طبيعياً أن يتبين من هذه الدراسة أن كثيراً من أوضاعنا ونظمنا الحالية إنما هى من تراث الماضى فى أدواره المتعاقبة . فأمم الشرق تجمع فى حياتها ونظمها القائمة بين الماضى والحاضر، بل إنها من بعض النواحى تعيش فى الماضى بقدر ماتعيش فى الحاضر أو فى المستقبل . ومع ذلك فان استمساكنا بالقديم ونظمه ليس معناه بالضرورة أننا محبون للمحافظة على القديم ، وإنما معناه الصحيح أن كثيراً من نظمنا الاجتماعية قد نشأ فى بيئاتنا نشأة طبيعية أصيلة ، ولم يكن مستعاراً من الخارج كما هى الحال فى غير قليل من النظم الاجتماعية والثقافية والدينية فى غرب أوربا أو فى أمريكا . ولما كانت تلك النظم فى بلاد الشرق قد نشأت فى البيئة وتغذت بلبانها . فقد عاشت وعمرت لانها كانت صالحة للبقاء والتعمير . ولذلك فان أهل الشرق ، لاسيما جماعاتهم الزراعية فى بلد كمصر ، لم يجدوا ضرورة ملحة فى أن يغيروا كثيراً من تلك النظم . وليس من المقبول أن نفسر استمرار النظم واستقرار الاوضاع وصعوبة تناولها بالاصلاح والتغيير فى بلاد الشرق على أنه راجع إلى حب المحافظة على القديم ، فذلك تعليل ، إن صح من بعض نواحيه ، فهو أبسط من أن يفسر ماحدث فى تاريخنا الطويل ، وما اكتنف ذلك التاريخ من أحداث جسام ، اهتزت لها وتغيرت بسببها جوانب أخرى من حياة أبناء الشرق . وإذا نحن اتخذنا مصر على سبيل المثال ، فاننا نجد أن من الصعب أن نسلم بأن

المجتمع المصرى مجتمع جامد محافظ على القديم ، ونحن نعرف أن المصريين قد غيروا لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون أكثر من مرة خلال تاريخهم ، واستبدلوا بدينهم ديناً آخر مرة أو مرتين ، وجمعوا بين القديم والحديث فى كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم ، واتصلوا بالعالم الخارجى واقتبسوا عن أهله وحضاراته فى الشرق والغرب على السواء . بل إن المصريين كانوا مجددين حتى فى الجانب المادى والعملى من حياتهم وحضارتهم ، فالزارع المصرى فى الحقل جدد أدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ، وجدد انواع محصولاته فأضاف اليها نباتات جديدة من وقت لآخر ، لاسيما بعد إدخال نظام الرى الدائم وظهور مايمكن أن نسميه الثروة الزراعية المصرية فى القرن التاسع عشر ، كما جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف اليها ما لم يكن معروفاً من قبل . وكل ذلك قلب نظام العمل والاقتصاد الاجتماعى فى الريف والحقل المصرى وكاد يغير معالمه تغييراً شاملا . وحتى القرية ذاتها قد تغير فيها كثير من الاوضاع لاسيما فى العهد الحديث . فبعد أن كانت القرى مركزة متجمعة ، تقام فوق كومات صناعية من التراب يتضافر أفراد المجتمع القروى ويتعاونون فى إقامتها والمحافظة عليها لتبقى القرية بمأمن من غوائل الفيضان ، جاء نظام الرى الدائم وتضاءل خطر الفيضان وانعدم رى الحياض أو كاد ، فتفرقت القرى وظهرت « العزب » الصغيرة المتناثرة ، ولم تعد بالمجتمع القروى المصرى حاجة إلى أن يتضافر أفراده ويتعاونوا من أجل إقامة كومات التراب والمحافظة عليها . وبذلك كله تغيرت أوضاع القرية واهتز كيانها كوحدة للمجتمع الريفى فى مصر ، وظهرت مشكلات اجتماعية وقومية خطيرة ، هى التى نحاول الآن أن نتناولها بالاصلاح ، ولكن تشخيص الداء فيها يحتاج ولا شك إلى دراسة عميقة فى الماضى وفى تاريخنا الاجتماعى الحافل بالتغيرات والأحداث .

ومع ذلك فنحن إذا توسعنا فى الدراسة من نطاق مصر الضيق إلى نطاق

الشرق العربى عامة ، فاننا نستطيع أن نلمس عدداً من النواحى الأساسية فى تاريخ المجتمع أو المجتمعات البشرية فى هذا القسم الخطير من العالم القديم . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى كل من هذه النواحى اشارة مجملة لنتبين مبلغ قيمتها بالنسبة لمن يريد تفهم التاريخ الاجتماعى والثقافى لهذا الشرق ، وقيمة ذلك بالنسبة لرسم خطط الاصلاح الاجتماعى فى المستقبل .

وأول مانلاحظه عن تاريخ الشرق أنه تاريخ طويل ، امتاز بالقدم والاستمرار وان كانت ظاهرة الاستمرار تختلف من حيث مدى انطباقها على مختلف جهات الشرق العربى ، فهى فى مصر واضحة تماماً ، اذ أن المجتمع الريفى مثلا تابع حياته فى القريه وعمله فى الحقل والزراعه دون انقطاع خلال فترة تقارب السبعة آلاف سنة ، أى منذ العصر الحجرى الحديث ، ولذلك فان نظمه استقرت وتبلورت على مر الزمن . أما فى جهات أخرى من الشرق العربى ومراكز حضارته القديمة كالعراق الاوسط مثلا فان ظاهرة الاستمرار لم تكن بمثل ما كانت عليه الحال فى مصر ، فالغزوات المختلفة وعهود الاضمحلال كثيراً ماأدت الى انقطاع الحياة الزراعية المستقرة فى بعض جهات العراق . ولذلك فان التاريخ الاجتماعى للعراق الاوسط لم يكن مطرداً ولا مستمراً ، وانما هو قد تشكلت نظمه وتغيرت بعض أوضاعه من عصر لآخر ، مما يجعل الدراسة عسيرة على من يريد أن يرسم خطة للاصلاح فى ضوء دراسة تاريخ النظم التى تحكم حياة المجتمع . وهناك مناطق أخرى فى الشرق العربى تبين من الابحاث الحديثة أن نشأة الحياة المستقرة والمدنية لم تكن فيها من القدم بما كانت عليه الحال فى مصر أو فى العراق ، ولكنها مع ذلك اتسمت باستمرار نظمها واستقرارها وتبلورها فى بيئتها المحلية على مرور الزمن . ومن تلك البلاد هضبة اليمن التى تمتعت بتربة صالحة ومناخ ممطر مناسب . فانتقلت اليها القبائل البدوية من قلب الجزيرة ومن الشمال ، ثم استقرت فيها واشتغلت بالزراعة

دون انقطاع ، ولكنها مع ذلك احتفظت بغير قليل من نظمها البدوية والرعوية . وقد تتيح دراسة التاريخ الحضارى وتاريخ الاقتصاد الاجتماعى بين قبائل اليمن المستقرة مايفيد المشتغلين بالاصلاح الاجتماعى وبرسم الخطط فيما يتصل بتوطين القبائل البدوية والانتقال بها من حالة البداوة الى حالة الاستقرار فى جهات اخرى من الشرق العربى فى الوقت الحاضر . فتجربة اليمن من هذه الناحية كانت تجربة تاريخية ناجحة ، زاوج بها أصحابها بين مجموعتين مختلفتين من النظم فى حياة البداوة وحياة الاستقرار . ولا شك أن لنجاحها أسباباً طبيعية وبشرية يحسن الالمام بها عند التفكير فى تجربة مماثلة فى بعض جهات الشرق العربى فى الحاضر أو فى المستقبل .

وثانى مانلاحظه فى تاريخنا الحضارى والثقافى والاجتماعى أنه ، وان كان تاريخاً مستمراً وحافلا بالتجديد ، ولو بدرجات تفاوت مداها من منطقة إلى أخرى . فان « الجديد » فى ذلك التاريخ لم يكن دائماً لينسخ « القديم » . وإنما جمع سكان هذا الشرق العربى فى حياتهم المتجددة بين كثير من النظم القديمة والنظم الجديدة التى عاش بعضها الى جانب بعض . وقد ترتب على ذلك ، وعلى التوفيق بين القديم والجديد ، أن أصبحت نظمنا الاجتماعية فى جملتها معقدة غاية التعقيد ، رغم ما قد يبدو عليها من بساطة ظاهرة . بل إن بعض مجتمعات الشرق العربى الحديث ، ومنها مجتمعات المدن فى مصر مثلا ، يعيش فيها أكثر من جيل واحد . فالمجتمع الحالى هنا يأتلف من مجموعة من الاجيال ، وذلك من حيث النظم ومناحى الفكر والاتجاهات والنزعات بين أفراده . وقد أدى هذا الى تفاوت كبير فى النظرة الى الحياة وغاياتها ووسائلها المشروعة ، مما يعقد مهمة المشرع أو المصلح الاجتماعى ، بل مما قد يجعل نقطة البدء فى أية حركة جدية للاصلاح فى بلدان الشرق أن نعمل جاهدين للتقريب بين مختلف الأجيال التى يعاصر بعضها بعضاً فى الوقت الحاضر وفى أغلب بلدان الشرق الحديث ، وذلك حتى يمكن أن تهيىء الرأى العام لتلقى رسالة موحدة للاصلاح ، يؤمن بها ، وتعمل فئاته وأفراده على تحقيقها بوسائل متجانسة وبجهود متكاملة . وهكذا يبدو أن المشكلة الاجتماعية فى الشرق العربى ، وان لم يكن اساسها

اختلاف الطبقات وتعددها كما هى الحال فى جهات أخرى من العالم كالهند مثلا ، فان أساسها ذلك التفاوت بين « الأجيال » التى تعيش فى وقت واحد ، ولكن بتقاليد أو بعقليات وثقافات متفاوته ، ولا شك أن دراسة مدى ذلك التفاوت وتحديده ضروريان لتأتى خطتنا للاصلاح الاجتماعى متسقه مع احتياجات هذا المجتمع المعقد التكوين ، ولئن نحن سلكنا هذه السبيل من لدراسة فستتجه خططنا بالضرورة أول ماتتجه نحو الحد من ذلك المدى وتضييقه ، لاسيما فى ميدان الثقافة والتعليم وبث الروح الاجتماعية السليمة ، وغير ذلك من وسائل التقريب بين « الأجيال » ، على غرار مايعمل غيرنا فى التقريب بين « الطبقات » .

وهناك أمر ثالث نلاحظه ونسجله فى تاريخنا الطويل . ذلك أن الشرق العربى امتاز بالاتصال الثقافى والحضارى الشامل بين مختلف أجزائه وأقطاره . وكثير من النظم التى نشأت فى إحدى جهاته انتقلت إلى بقية أرجائه . فالبادية كثيراً ما أثرت بنظمها وتشريعاتها فى أرض الحضر والاستقرار . والمناطق الزراعية المستقرة كثيراً ماتنفذت منها معالم المدنية وألوان الفكر والثقافة إلى قلب البادية . والجهات الداخلية كثيراً ماطردت عناصرها وسكانها وقذفت بهم إلى السواحل . والسواحل ذاتها كثيراً ماتنفذ أهلها إلى جوف الجزيرة العربية ، يمدون الطرق ويمهدون للاتصال ، أو يسعون بالتجارة بين البحار المعتدلة فى الشمال والبحار الدفيئة فى الجنوب . لذلك كله فان انتقال المؤثرات والنظم من من جهة إلى أخرى فى داخل نطاق الشرق العربى كان ظاهرة قديمة متجددة ، قد أثرت فى تاريخنا الاجتماعى وكيفته وطبعته بطابع عام هو الذى يجمع اليوم بين أقطار الشرق العربى ويؤلف منها اقليما واحداً كبيراً من الوجهتين التاريخية والاجتماعية ، أو الثقافية على أقل تقدير . ولئن فرضت هذه الظاهرة على المشتغلين بالاصلاح الاجتماعى شيئا ، فانها تفرض التعاون فى دراسة تلك التيارات الثقافيه والمؤثرات الاجتماعية التى نفذت عبر الشرق العربى من جهة

الى أخرى ، والتى قربت بين أقطار هذا الشرق تقريباً يتحتم معه أن تنسق الجهود والخطط عند مانتناول هذا الشرق ومجتمعاته بالاصلاح . فضلا عن أن هذا الشرق كان على الدوام إقليما تتجاوب فيه الأصداء ، فما من حركة للاصلاح فى أحد أقطاره أو إحدى جهاته إلا وكان لها شيء من الصدى فى الجهة المجاورة أو المقابلة . كان هذا شأن الشرق فى تاريخه القديم والوسيط ، وسيبقى هذا شأنه فيما نحن مقبلون عليه من أيام .

والأمر الرابع والأخير الذى نود أن نسجله عن تاريخنا الاجتماعى والثقافى العام هو أن أقليم الشرق العربى يقع برمته فى قلب العالم القديم ، ويحتل بأقطاره بقعة هامة عند التقاء قارات ثلاث لكل منها مكانتها فى تاريخ البشر ، وعند مفرق بحار تختلف فى أوضاعها وسكانها ، فمنها بحار الشمال التى تقع فى المنطقة المعتدلة وتبدأ بالبحر المتوسط ثم تتجه إلى ماوراءه فى بحار الغرب والشمال . ومنها بحار الجنوب والمنطقة الدفيئة والحارة التى تبدأ بذراعين فى خليج فارس والبحر الأحمر وتتجه إلى بحر العرب والمحيط الهندى وما وراءه فى أقصى الشرق . ولذلك كله تعرض الشرق العربى فى تاريخه الحافل لتيارات وهجرات ومؤثرات حضارية وثقافية أتته من هضبة ايران وما وراءها فى بلاد الهند وتركستان ، ومن هضبة الأناضول وأرمينيا ، ومن البحر المتوسط وجزره وشواطئه اليونانية واللاتينية ، ومن شمال أفريقية ، أو حتى من قلب أفريقية السوداء . كما أتت أيضاً فى فترات معينة من بحار العرب الجنوبية وشواطىء المحيط الهندى . وقد أثرت تلك العوامل والتيارات الخارجية فى الشرق العربى بدرجات متفاوتة ، فتركزت فى بعض أطرافه ، ولكنها بلغت فى بعض الأحيان قلب الجزيرة الصحراوى ، ونفذت خلاله من جانب إلى الآخر . وقد يكون مفيداً فيما نحن بصدده أن نميز أهم مناطق الاحتكاك بالخارج ، ومنها العراق الذى اتصل فى تاريخه بهضبة ايران وكردستان وما وراءها و تأثر

بذلك فى نظمه وحياة سكانه تأثيراً أدى إلى تعقيد تاريخه فى أكثر من جانب واحد ، خصوصاً وأنه تلقى مؤثرات كثيرة أخرى عن طريق حدوده العربية الملاصقة لبادية الشام أو عن طريق الخليج الفارسى والبحر . ومن مناطق الاحتكاك . كذلك ساحل لبنان الذى يصح أن يعتبر من أهم مناطق الاحتكاك الثقافى وأشدها طرافة بالنسبة للباحث . ففى هذه الشقة الجبلية الساحلية التقت حضارات البر وحضارات البحر ، وزاوج أهل هذا الساحل والجبل بين ألوان مختلفة من الثقافة بل ومن النظم . وظهر أثر ذلك التزاوج منذ أيام الفينيقيين الذين اتخذوا من هذا الساحل ومرافئه الصالحة مقراً وقاعدة نشروا منها ثقافة الشرق إلى الغرب ، ونقلوا اليها بعض ما كسبوا من احتكاكهم التجارى والفكرى . كذلك تلقى هذا الساحل غير قليل من مؤثرات الفكر الاغريقى ثم الفكر اللاتينى بعد ذلك إلى جانب ما كان يتلقاه دائماً من ظهيره الاقليمى فى داخل أرض سوريا والجزيرة ، بل وما كان يتلقاه من وقت لآخر من هضبة الأناضول وبلاد الحيثيين القدماء فى الشمال . لذلك كله كان لبنان مثالا للجمع بين المؤثرات الثقافية والتوفيق بينها ، على نحو يعتبر أنموذجاً لما تسعى اليها الانسانية من مزاوجه بين ألوان الفكر البشرى . ولكن ترتب على ذلك أن أصبح هذا البلد على صغر حجمه جامعاً من حيث نظمه الاجتماعية واتجاهاته الثقافية ، ومن حيث تنوع ألوان الفكر ومذاهب الطوائف . ولا شك أن هذا مما يجعل أمر الدراسة التاريخية معقداً وعسيراً ، ولكن نجاح ما قد تتكشف عنه تلك الدراسة من خطط الاصلاح قد يكون فى لبنان أكثر ضماناً منه فى غيره من البلاد ، ذلك أن أهله قد طبعوا بحكم صلاتهم الواسعة على رحابة الفكر واتساع الأفق والاستعداد للأخذ بوسائل التجديد .

ومثال آخر من مناطق الاحتكاك الثقافى والاجتماعى فى الشرق العربى هو مصر ، أرض الزاوية التى التقى عندها اليابس وافترق الماء . وقد قام تاريخ مصر

الطويل على الأخذ والعطاء ، فتأثرت بالعالم المجاور بل والعالم البعيد وأثرت فيهما ، وظهرت المؤثرات الخارجية فى مصر وتركيت فى بعض جهاتها على وجه الخصوص . فعلى حافات الدلتا مثلا التقت نظم البداوة ونظم الاستقرار ، وعلى الساحل الشمالى ظهرت المؤثرات البحرية التى بدأت بالاتصال بالعالم الأغريقى ، ثم تجددت فى العهد الحديث بالاتصال بالعالم الأوربى ، وتسربت تلك المؤثرات من الساحل إلى الداخل لاسيما فى المدن حيث التقت ثقافة الغرب بثقافة الشرق . وحتى الريف المصرى الذى قد يبدو لأول وهلة بعيداً عن المؤثرات الاجنبية لم يكن فى يوم من الأيام بمعزل عن تلك المؤثرات ، حتى فى أيام الأغريق والرومان . وها هو قد أخذ يشارك الآن فى تلقى مؤثرات التجديد والاحتكاك بالعالم الخارجى احتكاكا يمس حياة الريفيين وفكرهم مساساً بالغاً وعميقاً من بعض الوجوه . وظاهر أن دراسة مثل هذه المؤثرات فى المجتمع المصرى لاتقل أهمية عن دراسة الأسس والمقومات الأصيلة فى البيئة المصرية ، وما كان لها من أثر فى طبع الحياة والحضارة فى مصر بطابعهما الخاص الذى ميزهما على مر الايام .

تلك كلها أمور ومسائل عامة نلاحظها فى تاريخ الشرق العربى ومختلف أقطاره . وهناك مسائل أخرى عديدة نستطيع أن نجرى فى سردها وتتبعها ، ولكنها كلها تشهد بأن « الحاضر » فى هذا الشرق لايمكن أن ينفصل عن « الماضى » ، وبأن دراسة هذا الحاضر ونظمه دراسة عميقة لايمكن أن تتم ولا أن تثمر إلا إذا عدنا بتلك النظم إلى أصولها الأولى ، وعند ذلك تتكشف لنا الاوضاع الصحيحة لتلك النظم ، ونستدل على رسم خطط الاصلاح فى بصيرة ونور . ومع ذلك فيحسن بنا أن نسجل هنا نتيجة مبدئية وصلت اليها تلك الدراسات لاسيما فى مصر وبعض جهات العراق ، وهى نتيجة قابلة لشىء من التعديل بعد أن تتسع الدراسة وتزداد عمقاً ، ولكنها على كل حال

تنير السبيل أمامنا إذا نحن أردنا أن يجيء رسمنا لخطة الاصلاح متمشياً مع الأوضاع التاريخية والثقافية فى بلدان الشرق العربى وفى بلد كمصر او كالعراق بالذات .

وهذه النتيجة هى أن دراسة تاريخنا الاجتماعى والثقافى تتيح لنا ان نميز فى خطط الاصلاح بين مايتناول منها النظم « الأصيلة » فى البيئة المصرية . وما يتناول النظم « الدخيلة » عليها . فبعض النظم الاجتماعية فى مصر أصيل فى بيئتها الطبيعية ، فيها نشأ وعلى مقوماتها استند وعاش خلال العصور . ومثل هذه النظم عريق فى القدم ، وقد يرجع بعضها إلى أعصر ماقبل التاريخ . ومن ذلك مايتصل بالحياة الريفية وأوضاعها القروية ، ومنها مايتصل حتى بالمدن وحياة مجتمعاتها المدنية . وإذا نحن درسنا فترات التحول الاجتماعى فى تاريخنا المصرى الطويل فسنجد ان مثل هذه النظم الأصيلة لاتقبل التحوير والتغيير إلا فى رفق وفى حدود معينة ، وهى على كل حال لاترضخ للتحول السريع ولا للثورة العنيفة . ولذلك ينبغى أن ترسم الخطط ليأتى اصلاحها عن طريق التطور البطىء والتقويم الرفيق . فضلا عن أن بعضها قد يمثل مصدراً من مصادر القوة والحيوية فى حياة المجتمع ، مما يحسن معه الاحتفاظ به أو بعثه وتقويته إن كان قد جرى عليه الزمن ، فالاصلاح كثيراً مايقوم على إعادة البناء بمثل مايقوم عن الانشاء والتجديد .

ومن أمثلة هذه النظم الأصيلة ما أشرنا اليه من روح التضامن والتعاون بين سكان القرية المصرية التى نشأت فى الأصل على كومة من التراب يتعاون أهل القرية جميعاً على رفعها فوق مستوى الفيضان ، كما يتعاونون فى المحافظة عليها وإقامة الجسور حول حياض الزراعة من حولها وترتيب المواصلات المائية بين القرية وما جاورها إبان ارتفاع الماء وغير ذلك من المرافق التعاونية

التى عاشت بها القرية المصرية على الزمن آلاف السنين . وعندما جاء الرى الدائم وحل محل رى الحياض تغيرت الأوضاع ، ولم تعد هناك حاجة إلى أن تقام القرية فى مستوى أعلى من مستوى الأرض الزراعية ، بل لم تعد هناك حاجة إلى ان يتجمع السكان فى قرى كبيرة ، وظهر نظام « العزب » الصغيرة المتفرقة التى أشرنا اليها من قبل . وبذلك كله دخلت القرية المصرية الكبيرة فى دور من الانحلال يرجع فى أصله إلى زوال الدافع الأصلى إلى التعاون والتكاتف والتماسك بين سكان القرية الواحدة ، فانحلت الروابط وتضعضع نظام الادارة القروية وطغت الادارة المركزية العامة عليه ، وظهرت على الجملة مشكلة اجتماعية هى من أعقد ماتعرض له ريف مصر خلال تاريخه الطويل . وقد يكون طريق الاصلاح ، إذا مانحن فهمنا علة الداء على هذا الوجه ، أن نعمد إلى القرية فنعوضها عما فقدت من دوافع التعاون ، ونضع مشروعات قروية تدفع بأهل القرية الواحدة إلى التضامن والترابط والعمل المشترك فى إقامة مركز اجتماعى للقرية مثلا أو فى ردم البرك أو تحقيق مشروعات أو مرافق قروية مشتركة أو نحو ذلك . ويكون انجاز هذه الأعمال بمثابة وازع إلى الوحدة يقوم مقام ذلك الوازع الذى اختفى وتوارى بدخول نظام الرى الدائم إلى مصر .

ثم مثال آخر للنظم الاصيلة العريقة التى يصعب تغييرها تغييراً شاملا وسريعاً ، والتى تخفق فى وجهها التشريعات والقوانين المستحدثة مهما اشتدت تلك هى العادات الجنائزية التى ترجع فى مصر الى العهد الفرعونى أو حتى إلى ماسبقه من عهد ماقبل الاسرات . ولقد حاول المصلحون أن يتناولوها عن طريق التشريع العنيف فلم ينجحوا فى ذلك الا بقدر يسير . ولعل من الطريف أن نذكر أن القضاء على هذه العادات الجنائزية لم يبلغ غاية النجاح حتى بين الفئة المثقفة والمستنيرة استنارة عالية فى مصر . وغاية ماحدث أن تلك العادات قد اتخذت

صورة مخففة ومهذبة ، فصارت نعياً يطول فى الجرائد على نحو لايكاد يكون له مثيل فى غير صحف مصر ، أو انقلبت إلى حفلات تأبين طويلة ومؤثرة ، هى فى واقع الامر استمرار معدل للعادات الجنائزية التى جرى عليها شعب مصر خلال العصور .

كل هذا عن النظم الاصيلة فى البيئة المصرية . ولكن هناك نظما أخرى كانت دخيلة عليها ومستعارة من الخارج . وهذه انما دخلت مصر فى أوقات مختلفة ، وكثيرا ماحل بعضها محل بعض . واذا نحن رجعنا الى فترات التحول فى تاريخنا المصرى ، فاننا نجد أن هذه النظم الدخيلة كان يسهل على المجتمع دائما أن يغيرها أو أن يستبدل بعضها ببعض . ولذلك فاننا نستطيع ، إذ نرسم خطط الاصلاح الحديث ، أن نتناولها بالتجديد واثقين أن المجتمع يتقبل ذلك دون غضاضة أو ممانعة . وقد يكفى أن نذكر هنا من أمثلة هذه النظم حجاب المرأة ، فهو غريب عن البيئة المصرية ، ويكاد ألا يكون له أثر فى البيئة الريفية . فلما بدأت حركة الاصلاح من هذه الناحية نجحت ، وكان نجاحها فى صورة سريعة ظاهرة ، تكاد تشبه الثورة من بعض الوجوه . وكذلك الحال فى بعض النظم المصرية المستحدثة ، فهى كلها يمكن التحوير والتعديل فيها فى صور شاملة سريعة .

ولكننا قبل أن نختم يصح أن نشير الى أمثلة أخرى من بلد كالعراق . وقد تبين من الدراسة المبدئية أن النظم الاصيلة فى العراق ، على العكس من مصر ، قليلة نسبيا ، ولا تتمثل بوجه غالب الا فى بعض بقاع العراق الادنى ، فى أرض سومر القديمة وفى بلاد المستنقعات التى يصعب التوغل فيها واقتحامها بجماعات ونظم جديده من الخارج . أما باقى العراق فتكاد تغلب عليه النظم الدخيلة والمستعارة من المناطق المجاورة . وربما كان مرجع ذلك الى ان

العراق يختلف عن مصر فى أن الجهات المحيطة به ليست صحراوية قاحلة قليلة السكان كما هى الحال فى صحارى مصر ، وانما هى مناطق رعاة خرجت منها الهجرات بكثرة ، واستوطن أهلها بلاد العراق فى موجات متلاحقة . ولكن الشىء الطريف أن مصادر الهجرة إلى العراق متعددة . فهناك بادية الشام وبلاد العرب وأهلها من الساميين فى ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية ، وهناك هضبة كردستان فى الشمال وأهلها لهم ثقافتهم وحياتهم الخاصة ، ثم هناك هضبة ايران فى الشرق ولأهلها نظمهم وتقاليدهم وتاريخهم الخاص . ولذلك فان من يريد تتبع نظم العراق الدخيلة ، ومن يريد بصفة خاصة دراسة حياة القبائل البدوية والمستقرة استقراراً جزئياً ، سيجد أنها نظم معقدة متباينة بحسب الجهة التى نزحت منها كل قبيلة . ولا يمكن أن يتناول المصلح الاجتماعى مثل هذه النظم عن طريق وضع تشريعات عامة وشاملة تنطبق على جميع هذه الالوان من النظم القبلية فى العراق . ولذلك كله فان تجربة تحضير البدو وتوطينهم واستقرارهم تحتاج إلى دراسة وافية ومحلية لكل جهة يراد أن يتناولها الاصلاح فى أرض العراق ، خارج المنطقة التى استقر بها السكان منذ أمد بعيد .

تلك كلها أمثلة ومختارات أردنا بها أن نكشف عن أهمية هذا الاتجاه الخاص فى دراسة المجتمع قبل ان نعالج مشكلاته الاجتماعية أو نتصدى لتناولها بالاصلاح . وقد تبين لنا ، فيما أرجو ، كيف ان دراسة التاريخ الاجتماعى والحضارى العام للمجتمع فى منطقة كالشرق العربى هى ضرورية لنفهم مايسوده الآن من نظم ، بعضها صالح وقوى ، وبعضها الآخر يكاد يتصدع امام ضغط الاحداث وتطورها فى عهدنا الحديث . وظاهر أن دراسة المجتمع واوضاعه التاريخية تعيننا فى تفهم الحالة الراهنة من جهة ، وفى رسم خطط الاصلاح على اساس من الاستنارة والتوجيه السليم من جهة ثانية . ذلك ان تلك الدراسة ترد النظم الى اصولها وتنير السبيل امامنا ، لاسيما اذا ما نحن عنينا بدراسة

فترات التحول والتغيير الاجتماعى فى الشرق وتاريخه . فقد لاتختلف حالنا الآن عما مر به الشرق فى بعض أدواره من تحول وتغير أمام اختلاف الظروف وضغط العوامل الخارجية التى أتته من العالم المجاور فى أحيان كثيرة ، والتى أتته حتى من العالم البعيد فى بعض الأحايين .

إن محاولة الاصلاح الاجتماعى أمر خطير لايجوز أن يكتفى فيه بمجرد النقل عن الغير ، أو الدراسة العارضة التى تتناول المظاهر والاعراض دون العلل والاسباب . وليس يكفى فى بلدان الشرق أن ندرس الحالة الراهنة ثم نضع الخطة لاصلاحها ، لأننا فى هذه الحالة قد لا نتعدى القشرة الى النواة ، وقد ينتهى الامر إلى نكسة تضعضع الامل عند من يقومون على الاصلاح وتضعف الثقة عند من توضع الخطط لخدمتهم واصلاح حالهم . ولذلك فقد لا يكون كثيراً أن نطالب فى الشرق بضرورة الاهتمام بدراسة الاوضاع التاريخية والثقافية لنظمنا الاجتماعية القديمة والمستحدثة ، وأن تكون تلك الدراسة أساساً لما يوضع للاصلاح من خطط .

ولعله لايكون بعيداً ذلك اليوم الذى يظهر فيه إلى حيز الوجود معهد أو مكتب لدراسة هذه الاوضاع دراسة علمية دقيقة وعميقة ، تقوم عليها هيئة من الباحثين و المختصين ، وتشرف عليها احدى الجامعات العلمية الحديثة فى مصر أو فى إحدى بلدان الشرق العربى ، أو تشرف عليها اللجنة الثقافية للجامعة العربية بالذات . وتكون هذه الدراسة تمهيداً طيباً لمشروعات الاصلاح .

ولئن نجح هذا المؤتمر فى إثارة الاهتمام فى الشرق العربى بمثل هذه الدراسات العلمية العميقة وفى توجيه النظر إلى ضرورة الأخذ بأسباب التوسع فيها على نطاق أكثر شمولا مما تم فى هذه البداية المتواضعة ، فانه يكون قد أدى بعض رسالته ، وخطا خطوة علمية فى سبيل تحقيق الغرض من عقد هذه الحلقة من الدراسات الاجتماعية فى الشرق العربى .

سليمان مرزبه